روح الطموح في المتنبي

منشأ الطموح

طردُ الهم او دفع الالم هو كما قال ابن حزم « مذهب اتفقت الامم كلها عليه فلا يعتمدون بسعيهم امراً سواه » لكن للنفس نزعات ورغبات تأتيها من طريق الشعور بالحاجة او بمايؤثر في ميولها من وراثة فتحاول طرد الهمّ بدفع ما يحول دونها . فالناشئ في سلف عزيز وخلف اعزة تنزع نفسه الى العز ، والنابت في منبت شهواني او سلف أُلِفَ الشهوات يحارب كل ما يحول بينه وبينها ليدفع عن نفسه الم حرمانها . وما طلب المالَ طالبه الا لطرد هم الفقر ، ولا رغب في الحياة راغبها إلا لدفع همّ الموت ، ولا ابتغى الصيت مبتغيه الا لطرد همّ الخمول ، ولا طلب المعالي من الامور إلا من يكره ان يستعلي عليه عالٍ .

الانسان روح واشد ما تكره الروح ان يستعلي عليها مستعل او يسيطر عليها مسيطر . ولكن هذه الروح قد تستخذي للقوة القاهرة اذا ضعفت عن مقاومتها فتخضع على كره منها وهي مفعمة هماً مملوءة كرباً ، فاذا طال عليها الأمد ، وهي خاضعة ، الفت الخضوع وعلى نسبة هذه الالفة يخف ألمها وينفرج كربها .

عزة النفس العربية

العرب امة نشأت على عزة النفس والاباء فرأت انها اعز الامم جاراً وامنعهم ذمارا واشرفهم محتدا واذكاهم عنصرا ، ثم تجاوزت الحدّ فرأت أن كلّ من عدا العرب اعاجم لا يدانون العرب منزلة ولا يوازنونهم كفاءة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فليس عجيباً والحال هذه ان يأنف النعمان بن المنذر وهو عامل كسرى على قرى الطف من تزويج ابنته من كسرى لما خطبها اليه فيقتله كسرى تحت ارجل الفيلة انتقاما من انفته . ولا ان ينتقم له العرب بوقعة ذي قار لانه ذهب شهيد الكبرياء العربية وفي سبيل صيانة الدم العربي .

وليس غريبا ان تعتصم ليلى بنت لكيز بعفتها ولا ترضى ان تكون في نساء كسرى لانها عربية وهو اعجمي . وهي بنت الصحراء او ربيبة البوادي واليفة المضارب ، وهو صاحب الدور المشيدة والصروح الممردة والملك العظيم والنعيم المقيم . لكنه مع هذا كله ليس بكفء لها لانها عربية وهو اعجمي .

هذه هي كبرياء العرب وطموح العرب ، فلا عجب اذاً ان نرى عربيا قحاً كابي الطيب ارتفع بذكائه وعلا اقرانه ببيان ساحر وقلب جريء وعزم ثاقب وعلم جم تهب عليه ريح الطموح وتطغى فيه روح التعاظم وهو العربي منبتاً ونسباً وادباً .

المتنبي عربي صميم النسب

ضربت بعرق المتنبي دوحة يمان ، فهو من حيث ابوه جعفي من سعد العشيرة من مذحج ، وهو من حيث امه همداني وهمدان واسطة عقد العرب اليمانيين مجدا وشجاعة وسيد العرب بعد النبي المختار يقول فيهم :

ناديت همدانَ والابواب مغلقة ومثل همدان سنوا فتحة الباب
كالخندواني لم تفلل مضاربه وجه جميل وقلب غير وجاب

يقول ابوالحسن ابن ام شيبان : ان ابا الطيب كان جعفيا صحيح النسب ، ويقول ابوالحسن محمد بن يحيى العلوي الزبدي: ان والد المتنبي كان يقول انه من جعفي ، ثم قال وكانت جدة المتنبي همدانية صحيحة النسب لا اشك فيها وكانت جارتنا ، وابو الطيب يقول على قلة اعتداده بمجد الآباء :

ومجدي يدل بني خندف على ان كل كريم يماني

ويقول :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنف ان تسكن اللحم والعظما

فيدعي مثل هذه الكبيرة ويفخر هذا الفخر ويبالغ في أنفة قومه هذه المبالغة فلا بد اذاً لهذه الدعوى من اصل في شرف آبائه . أما ان لا يكون لدعواه هذه أساس تبنى عليه هذه المبالغة فاني اراه غير مقبول في العادة ، والا فلم تركها له حساده والناعون عليه وما اكثرهم حوله وما احصاهم لكل دقيقة وجليلة عليه ! واذا لم يكن له اصل من شرف آبائه وهو مع ذلك يقول فيهم مثل هذا القول فكيف يسكتون عنه من هذه الناحية من فخره بعد ان طبلوا وزمروا في تنقصهم له ، وكل ما قالوه في نسبه ان اباه ويلقب بعيدان كان خامل الذكر فقيراً ومهما اشتد الفقر لا يكون مزريا بالاحساب والانساب ، وخمول الذكر مهما استحكم لا يكون ميزاناً لمجد الآباء وشرف العنصر ؛ واما ما جاء به بعض المخرفين عنه من انه انما افتخر بنفسه دون آبائه فلكي يسر وهناً في نسبه . فهو دليل لا يصح الركون اليه واذا كان المتنبي يقول :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي

فانها سنة كبار النفوس ، وهذا عامر بن الطفيل العامري وهو من علمت مقامه في العرب حسباً ونسباً يقول :

وما سودتني عامر عن كلالة ابى الله ان اسمو بأم أو اب

اذا كانت نفس عصام سودت عصاما فليس معناه ان آباءه لم يكونوا ذوي سؤدد وسيادة بل هو على حد قول الفضل اللهبي الهاشمي الذي يقول :

لسنا وان أحسابنا كرمت يوما على الاحساب نتكل
نبني كما كانت اوائلنا تبنى ونفعل مثلما فعلوا

على أن أبا الطيب قد استدرك ما قد يتوهم من قوله بل شرفوا بي بقوله بعده :

وبهم فخر كل من نطق الضاد وعوذ الجاني وغوث الطريد

وليس عجيباً من ذي كبرياء وطموح مفرط كالمتنبي أن يقصد المعنى الذي اراده الشاعر :

وكم أب قد علا بابن ذُرى شرف كما علت برسول الله عدنان

إن المتنبي الكبير النفس المتجاوز حد التعاظم بمثل قوله :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فدع عنك تشبيهي بما وكأنه فما احد فوقي ولا أحد مثلي

والذي يقول :

وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق محتقر في همتي كشعرة في مفرقي

يأبى أن يستند في فخره الى مجد عظامي ، وان كان شامخاً باذخاً ، ويريد أن يحقق بنفسه القاعدة المشهورة « المرء بجده لا بجده » على أن خمول ذكر والده وعدم مساعدة الزمان له على أن ينال مقاماً يعرف به لم يسلبه عبقرية صالحة جعلته يمتع نفسه بولده بما حرمت نفسه منه من علم وثقافة ، فسافر به الى الشام حيث الهواء العذي والماء الروي ، والادب ناشر أعلامه ، ومجالسه حافلة بالفحول من الشعراء وأعلام اللغة ، حيث منبت الطائيين اللذين انتهت اليهما زعامة الشعراء ، حيث موطن العتابي والنمري والسلمي وابن زرعة الدمشقي وغيرهم ، « حيث رزقت الشام ملوكا واسراء من آل حمدان وبني ورقاء ، وهم بقية العرب والمشغوفون بالأدب ، والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين السيف والقلم » ، حيث ملتقى أئمة اللغة ونحاريرها وفحول العربية وأساطينها أمثال ابن خالويه والفارسي .

يقول الثعالبي : سافر به أبوه الى الشام فلم يزل ينقله من باديتها الى حضرها ومن مدرها الى وبرها ويسلمه في المكاتب ويردده في القبائل ومخايله نواطق بالحسنى ، ضوامن النجح فيه حتى ترعرع وشعر وبرع »

المتنبي بعد موت أبيه

ما زال هم الطموح يعتلج في صدر أبي الطيب ويقد وهو منصرف الى مغالبة العوائق ، فعكف على التحصيل ، وكان كثيراً ما يغشى الوراقين يتزيد من دفاترهم علماً ، ويجهد نفسه في المطالعة واستظهار ما يروقه . وهو من جودة الحافظة وحضور الذهن في منزلة لا أدل عليها مما رواه بعض الوراقين ، وكان هذا في أول صباه من أنه حفظ كتابا للاصمعي يدخل في ثلاثين ورقة بنظره فيه نظرة واحدة ، فروى أيام العرب وتعمق في درس اللغة فقنص شواردها وتأنس أوابدها حتى بلغ من ذلك الغاية ، وحسبك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شهادة أبي علي الفارسي له لما سأله عن الجموع بوزان فِعلى واجابه أبو الطيب بلا توقف انها حجلى وظربى . يقول الفارسي انه قضى ثلاث ليال يراجع كتب اللغة فلم يجد لها ثالثا .

دعوته الى نفسه وجرأتها

ابو الطيب عربي خالص العروبة ، تفتحت عيناه على عز العرب وما هم فيهم من دولة ورأى ذوي المواهب يتسابقون فيها الى امتلاك زمام الامر والنهي ، هذا بهمته وجهوده وذاك بعصبيته وقومه ، وذلك بعلمه وثقافته . فليس غريبا أن تزداد روح الطموح فيه نشاطا وهو يرى أنه أعلى منهم ثقافة وأكبر همة وأعز نفسا ، فكيف لا يدفعه هم استعلائهم عليه بكل طريق بحسب القدرة من نفسه عليه .

وكأنه رأى أن اعلى مقام للسلطان هو الخلافة ، وهي فوق مقدوره لحاجتها الى بيعة شاملة او ولاية عهد مؤيدة ولكنها فرع النبوة وعلى النبوة قامت دعائمها ، والنبوة تبتدئ بالدعاية الفردية ثم تنتشر فيكثر حولها الانصار فتشتد فيعلو امرها . رأى ذلك وعنده من قوة الجنان وسحر البيان وفصاحة اللسان ما يخلب به ألباب الاعراب وكانت قد فشت في ذلك العصر بدع المتنبئين ودعوات الحلول وعليها قتل ابن الشلمغاني والحلاج وغيرهم وفشت دعوى القرامطة المبنية على مثل هذا الاساس .

فتخيل ان الزمان بؤاتيه حيث كانت الممالك فوضى بعد ان ضعفت الخلافة في بغداد واصبح كل امير مستقلا بعمله ، ففي البصرة ابن رائق ، وفي خوزستان البريدي ، وفي فارس عماد الدولة بن بويه ، وفي الري وأصفهان والجبل ركن الدولة بن بويه وابن زيار يتنازعان عليها ، وفي الموصل وديار بكر وربيعة ومضر بنو حمدان ، وفي مصر والشام الاخشيديون ، وفي المغرب وافر بقية الفاطميون ، وفي الاندلس عبد الرحمن الناصر الاموي ، وفي بلاد البحرين واليمامة القرامطة .

تخيّل هذا وهو من طموحه في غرور متجاوز الحد ، فحاول دعوى النبوة او انه أظهرها على اختلاف امهات الروايات في ذلك ، وقد رأيت ان ألم بها لاستجلي ما يتراءى لي من تحقيق فيها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال علي بن المحسن التنوخي عن ابيه عن ابي الحسن بن ام شيبان الهاشمي الكوفي : « كان المتنبي لما خرج الى كلب واقام فيهم ادعى انه علوي ، ثم ادعى بعد ذلك النبوة ثم عاد يدعي انه علوي الى ان اشهد عليه بالشام بالكذب في الدعويين، وحبس دهراً طويلا واشرف على القتل ، ثم استتيب واطلق(١) وهذه الرواية تصلح بادعائه العلوية ، وان حبسه كان طويلا ، لاقى فيه العذاب واشرف على القتل ولكنها لا تقول بأنه اجتمع عليه احد وبنو كلب بارض نخلة وهي بلدة في بعلبك على ثلاثة اميال منها ، ولعلها نخلة بالهاء المهملة ، المعروفة اليوم في بعلبك ، ويدل على إقامته في هذه القرية قوله :

ما مقامي بأرض نخلة الا كمقام المسيح بين اليهود

قال العكبري في شرح هذا البيت : دار نخلة على ثلاثة أميال من بعلبك وهي قرية لبني كلب .

وروى التنوخي عن أبيه عن أبي علي بن ابي حامد قال : سمعت خلقاً بحلب يحكون — وابو الطيب المتنبي بها اذ ذاك — انه تنبأ ببادية السماوة ونواحيها الى أن خرج اليه لؤلؤ امير حمص من قبل الاخشيدية فقاتله وانفره وشرد من كان اجتمع اليه من كلب وكلاب وغيرهما من قبائل العرب وحبسه في السجن حبساً طويلا فاعتل وكاد أن يتلف حتى سئل في أمره فاستتابه . ثم قال : وكان قد تلا على البوادي كلاماً ذكر أنه قرآن منزل (١) .

وهذه الرواية تقول إنها سمعت بحلب وجاءت بها بلفظ (ويحكون) وانها حكيت وابو الطيب في حلب اذ ذاك اي في زمن سيف الدولة وبعد نيف وعشرين عاماً من خروجه وهي لا تتعرض لدعوى العلوية ، بل تقول إنه اظهر النبوة وتبعه خلق من قبائل شتى اجتمعوا عليه وان الذي خرج اليه وحبسه واستتابه هو لؤلؤ الاخشيدي

وقال الثعالبي « وقد بلغ من كبر نفسه وبعد همته ، ان دعا الى بيعته قوماً من رائشي نبله على الحداثة من سنه والغضاضة من عوده ، وحين كاد يتم له أمر دعوته ، تأدى خبره الى والي البلدة ، ورفع اليه ما هم به من الخروج فأمر بحبسه وتقييده (٢) »

(١) تاريخ بغداد للخطيب م ٤ ص ١٠٤ (٢) يتيمة الدهر م ١ ص ٧٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويحكى انه تنبأ في صباه وفتن شرذمة بقوة ادبه وحسن كلامه ، وحكى ابو الفتح عثمان بن جني قال : سمعت ابا الطيب يقول إنما لقبت بالمتنبي لقولي :

انا ترب الندى ورب القوافي وسهام العدى وغيظ الحسود
انا في امة تداركها الله غريب كصالح في ثمود (١)

وروايتا الثعالبي هاتان تدل اولاهما على انه دعا الى بيعته ولم تصرح بان البيعة كانت للنبوة او للولاية . وعلى انه قبل ان تتم دعوته حبسه الوالي وانه كان هم بالخروج اي انه هم ولم يفعل ، فهو اذاً على هذا لم يخرج فعلا .

وجاء الثعالبي في الثانية بلفظ (ويحكي) مما يدل على توهين امرها وزاد في المتوهمين تعقيبه لها بما رواه ابن جني عن المتنبي نفسه في سبب تلقيبه بالمتنبي وفوق ما رواه ابن جني تنصّل ابي الطيب من دعوى التنبؤ والقرآن المزعوم ، فقد روى التنوخي عن ابيه ان المتنبي كان اذا شوغب في مجلس سيف الدولة ونحن اذ ذاك بحلب نذكر له هذا القران وامثاله مما يحكى عنه فينكره ويجحده ويقول انا لست ارضى ان ادعى بهذا (اي بالمتنبي) وانما يدعوني به من يريد الغض مني .

فالمتفق عليه اذاً من هذه الاحاديث انه حاول الخروج على السلطان وانه حبس في ذلك حبساً طويلا حتى كاد يتلف وانه استتيب واطلق ، وهذه الروايات انما هي عن اقرب المؤرخين اليه عصرا فالخطيب البغدادي ولد سنة ٣٩٢ والثعالبي ولد في حياة المتنبي سنة ٣٥٠ والظاهر ان اعتماد من تأخر عنهما في حديث المتنبي كان عليهما ، ويظهر من التدقيق في نص هذه الروايات ان القول بانه هم بالخروج وانه خرج في طلب امارة هو اقرب الى الصواب من انه تنبأ واجتمع عليه جماعة من قبائل شتى ومن انه اظهر قرآنا لان الرواية التي تقول هذا لم تخلُ من كلمات تحفظ مثل اسنادها الى الحكاية ومثل ان الرواية كانت بحلب وابو الطيب اذ ذاك بها بخلاف الرواية الاولى التي ارسلت كأنها حقيقة » وانت تعلم ان ابا الطيب في حلب زمن سيف الدولة كان يستغيث من كيد حساده وقوة بأسهم وشدتهم في الغض منه والحط من شأنه فيقول له :

(١) اليتيمة م ١ ص ٨٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ازل حسد الحساد عني بكبتهم فانت الذي صيرتهم لي حسّدا

اولئك الذين اخرجوه من حلب مغاضباً سيف الدولة لانه لم ينتصر له منهم على شدة حبه له وحنينه اليه بعد فراقه ، ويحكى عن بعضهم انه مات حسدا لابي الطيب وحنقا منه

وفي الصبح المنبي رواية اخرى غير ما تقدم وهي ان المتنبي خرج بارض سلمية من اعمال حمص في بني عدي وان الذي قبض عليه هو ابن علي الهاشمي في قرية يقال لها كوتكين وانه امر النجار ان يجعل في رجليه قرمتين من خشب الصفصاف وان المتنبي قال في ذلك :

زعيم المقيم بكوتكين بانه من آل هاشم بن عبد مناف
مذ صرت في ابياتهم متنبأً صارت قيودهم من الصفصاف

وانه كتب الى الوالي من السجن يستعطفه بقوله :

ان يكن قبل ان رأيتك اخطأ ت فاني على يديك اتوبُ
عائب عابني لديك ومنه خلقت في ذوي العيوب العيوب

وظاهر هذه الرواية ان الذي قبض عليه وحبسه ثم تاب على يديه هو ابن علي الهاشمي ، وان خروجه كان بأرض سلمية في بني عدي

دفاعه عن نفسه وهو في السجن

هذه هي الروايات المختلفة في ما رمي به المتنبي ، فلنرجع في التحقيق الى مايقوله هو في دفاعه هذه التهمة ونستخرج من قصيدته التي أرسلها من سجنه الى الوالي (لائحته الدفاعية) التي يستحق عليها اجازة كلية (ليسانس) فهو يقول :

وقيل عدوت على العالمين بين ولادي وبين القعود
فما لك تقبل زور الكلا م وقدرُ الشهادة قدر الشهود
فلا تسمعنّ من الكاشحين ولا تعبأن بمحك اليهود
وكن فارقا بين دعوى ارد ت ودعوى فعلت بشاو بعيد
تعجل فيّ وجوب الحدود وعمدي قبل وجوب السجود
وفي جود كفيك ماجدت لي بنفسي ولو كنت أشقى ثمود

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ان أبا الطيب قلب الدفاع في أبياته هذه على وجوه :

الأول : أن يقابل الدعوى بإنكارها من أساسها بقوله فما لك تقبل زور الكلام .

الثاني : أن يرد شهادة الشهود بجرحه لهم لانهم سفلة سقاط ذوو محك كمحك اليهود بقوله : وقدر الشهادة قدر الشهود . وقوله : ولا تسمعن من الكاشحين .

الثالث : على فرض قبول شهادتهم وعدم قبول هذا الجرح فان شهادتهم جاءت على أنني أردت لا على أنني فعلت ، والحد والعقاب لا يجبان على معتقد الجرم ما لم يفعله فاذا هو فعله استحق العقاب على الفعل ، وأنا لم أفعل فلا عقاب علي . وذلك في قوله : وكن فارقاً بين دعوى أردت .

الرابع : وعلى فرض رد ذلك كله ، فانما تجب الحدود على البالغ وأنا صبي لم أبلغ الحلم ولم تجب علي الصلاة ، فكيف يحكم علي بالعقاب ، والعقاب فرع التكليف ، وأنا لم أكلف فلا عقاب علي . وفي ذلك يقول : تعجل في وجوب الحدود .

الخامس : وعلى فرض الاعراض عن كل ما جئت به من وجوه الدفاع ، فانني أطلب العفو والصفح وهذا آخر ما يطلبه المحكوم عليه وهو قوله : وفي جود كفيك ما جدت لي

ويظهر من هذا أن التهمة وجهت اليه وهو دون سن البلوغ أي دون سن الخامسة عشرة من عمره ، وهي السن التي يقع معها التكليف ، أو كان حواليها على فرض المبالغة ، وفي تفننه في وجوه الدفاع بل في إنكاره التهمة من أساسها ما يدل على أنه ما ادعي عليه به من التنبؤ لم يكن على حد التواتر ، ولو انتشرت دعوته واجتمع عليه جماعة من قبائل شتى لكانت لاجلها متواترة ، وكان مثل هذا الدفاع ومثل هذا الانكار مكابرة ومماحكة وهراء من القول فكيف يتسنى لأبي الطيب حينئذ أن ينكرها من أساسها بل كيف يتسنى لمثل أبي العلاء المعري وهو أقرب الناس الى زمانه وأكثرهم معرفة به واعجابا أن يشكك فيها ؟

عن الذي سجنه

بقي الكلام في اسم الوالي الذي قبض عليه وسجنه ثم استتابه وفي هذه القصيدة من صفات الوالي ما يدل عليه ، وقد سمعت مما تقدم أنه أحد الرجلين : لؤلؤ الاخشيدي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أو ابن علي الهاشمي . يقول أبو الطيب :

فمن كالامير ابن بنت الامير ... أم من كآبائه والجدود
رمى حلبا بنواحي الخيول ... وسمر يُرقن دماً في الصعيد
فولى باتباعه الخرشني ... كشاء أحس بزأر الأسود

قالوا لي إذاً هو أمير ابن بنت أمير له آباء وجدود يفتخر بهم ، وليس للؤلؤ مثل هذه الصفات لا حقيقة ولا ادعاء فكونه ابن علي الهاشمي أقرب الى التحقيق . ويدل قوله : رمى حلبا بنواحي الخيول انه قاد الجيوش الى حلب ، ولم تكن يومئذ حرب بين حلب وحمص ، فهو اذاً قد ساقها لنصرتها لا لحربها وذلك فيما وراء حلب لقتال الروم بدليل قوله فولى باتباعه الخرشني ، وليس الخرشني الا الدمستق صاحب عسكر الروم شرقي القسطنطينية وكانت له حرب مع هذه البلاد في سنة ٣١٩ وعمر أبو الطيب يومئذ ست عشرة سنة ، وأرجح أن متولي كبر الكراهية في هذه الحرب بنو حمدان أمراء الموصل ، لان حفظ ثغور الروم كان مفوضاً اليهم من خليفة بغداد ، ولم يكن الاخشيديون يوماً من الايام مناصرين للحمدانيين .

بعد السجن

قال ياقوت « ولم يزل (المتنبي) بعد خروجه من الاعتقال في خمول وضعف حال حتى اتصل بأبي العشائر (ابن حمدان) ومدحه وعرف منزلته ، وكان والي أنطاكية من قبل سيف الدولة ، ولما قدم سيف الدولة أنطاكية قدّم المتنبي اليه وأثنى عليه عنده ، وعرفه منزلته من الشعر والادب » وسيف الدولة ملك حلب سنة ٣٣٣ هـ وعرفه سيف الدولة منذ قدّمه أبو العشائر كما هو ظاهر قول ياقوت سنة ٣٣٧ فتكون المدة بين خروجه من السجن واتصاله بسيف الدولة حوالي سبعة عشر عاماً .

وما زال أبو الطيب في ضنك عيش وسوء حال بعد خروجه من السجن يدفع هم الفقر بطرق أبواب الامراء والولاة ، فلا يجد عندهم الا خسيس العيش ولم ترفعه صلاتهم الى أن يستبدل بنعليه مركوبا ولا برجليه راحلة فيقول يومئذ :

لا ناقتي تقبل الرديف ولا ... بالسوط يوم الرهان أجهدها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شراكها كورها ومشفرها زمامها والشسوع مقودها

ويقول :

ومهمهٍ جبته على قدمي تعجز عنه المراسس الذلل
في سعة الخافقين مضطرب وفي بلاد عن أختها بدل

ويقول في قصيدته الدينارية :

اظمتني الدنيا فلما جئتها مستمطراً مطرت علي مصائبا
وحُبيت من خوص الركاب بأسود من دارش فغدوت امشي راكبا

فكان من جملة مصائبه ان يفرغ الى علي بن منصور الحاجب من جور زمانه ويمدحه بمثل هذه القصيدة الغراء فيجيزه عليها ديناراً واحداً . وكأنه أراد أن يمن عليه بهذا الدينار ليشتري به بدلا من حذائه الذي قطعه في المشي اليه .

ويقول المتنبي في قلة الجدوى :

لُم الليالي التي اخنت على جدتي برقة الحال واعذرني ولا تلم
ارى اناساً ومحصولي على غنم وذكر جود ومحصولي على الكلم

والظاهر ان أول من اتصل به من الرؤساء هو ابو عبد الله معاذ بن اسماعيل اللاذقي فان معاذاً يقول : انه جاء اليه في سنة ٣٢٠ ولا عذار له وله وفرة جميلة . وارجح ان اتصاله بمعاذ اذا صح أنه كان سنة ٣٢٠ كان بعد خروجه من السجن ، لانه لما كان في السجن بدعوى الخروج (ولم يعلم انه سجن قبلها او بعدها) كان في الخامسة عشرة او حواليها . واما ما جاء في حديث معاذ من انه مخرق له واغواه بضرب من السحر تعلمه من اليمن ، وان معاذاً رجع عن الغواية به لما علم أن ما جرى منه كان قد تعلمه من اليمن بعد أن سأله هل دخلت السكون ؟ فأجابه المتنبي نعم أما سمعت قولي :

امنسيّ السكون وحضرموتا ووالدتي وكندة والسبيعا

فهو ظاهر الوضع لان البيت المذكور هو من قصيدة مدح بها المتنبي عليّ بن ابراهيم التنوخي سنة ٣٢٣ على أنه لم يرو أن المتنبي دخل اليمن وما السكون وحضرموت وكندة في البيت الا أسماء محال بالكوفة قال ذلك شراح ديوانه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قضى أبو الطيب ثلاث عشرة سنة بين اللاذقية ومنبج وطرابلس وطبريا والرملة وغيرها من البلاد لا يروي ظمأه الى المعالي ولا يبلغ آماله من المال ، وكان في تلك الحال السيئة يقول :

اذا لم تجد ما يبتر الفقر قاعداً فقم واطلب الشيء الذي يبتر العمرا
هما خلتان : ثروة أو منية لعلك أن تبقى بواحدة ذكرا

وما زالت هذه حاله حتى نعم بكرم أبي العشائر ، فاستيقظت مع الرخاء ونعمة العيش روح كبريائه ، ولما أراده سيف الدولة لصحبته لم يجبه أبو الطيب الا على شرط أن لا ينشده قائماً ، وأن لا يقبل الارض بين يديه كما كانت سنة الشعراء مع الملوك والامراء يومئذ ، وقبل سيف الدولة شرطه حرصاً على الاستئثار بفرائده وقلائده الخالدة على الدهر ، وهذه الميزة لم يعطها سيف الدولة لاحد ممن كان في حضرته من الشعراء غير أبي الطيب ، ولما أنشده أول قصيدة مدحه بها وقال في مطلعها « وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه » اعترضه ابن خالويه وكان حاضراً ، فقال لابي الطيب أتقول أشجاه وانما هو شجاه فقال أبو الطيب له (اسكت ليس هذا من علمك انما هو اسم لافعل) وابن خالويه من أئمة العربية يجيبه أبو الطيب بمثل هذه الغلطة لانه انتصر عليه وهو من الاعتداد بنفسه وبعلمه بالمحل الذي علمت .

ولعل هذا التعاظم من أبي الطيب على ابن خالويه كان أساساً للتعادي بينهما الذي انتهى أمره بأن ضربه ابن خالويه بمفتاح من حديد على وجهه في حضرة سيف الدولة فأدماه .

توالت نعم سيف الدولة على أبي الطيب فاستبدل بالاسود الدارش افراساً نعالها من عسجد وترك السرى وقطع القفار لمن قل ماله وأصبح يقول :

في الشرق والغرب أقوام نحبهم فبلغاهم وكونا أبلغ الرسل
وخبراهم بأني في مكارمه أقلب الطرف بين الخيل والخول

ولكن أبا الطيب لم يجد بعد هذا كله قيد الاحسان يقيده في ذرى سيف الدولة كما زعم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شهرته الطائرة في شعره وأثرها في طموحه وكبريائه

يقول صاحب المثل السائر « وأما المتنبي فقد شغلت به الالسن وسهرت في أشعاره الاعين وكثر الناسخ لشعره والغائص في بحره والمقتبس من جمانه ودره » وانما شهرة أبي الطيب انما نمت وعمت منذ اتصل بسيف الدولة فأكثر هذا حساده بكثرة انعامه عليه وبما رفع من منزلة لديه .

نشطت روح الطموح في أبي الطيب بعد أن سار ذكره في الأقطار مسير الشمس وتناقل شعره البدو والحضر وعمرت به أندية الادب ، واستعان بألفاظه ومعانيه جمهور الكتاب حتى من كان شديد الكره له عظيم النعمة عليه كالصاحب بن عباد

ويقول ابن العميد وقد ماتت أخته (انه ليغيظني أمر هذا المتنبي واجتهادي في أن أخمد ذكره ، فقد ورد علي نيف وستون كتاباً في التعزية ، ما منهم الا وقد صدر كتابه بقوله :

طوى الجزيرة حتى جاء نبي بخبر فزعت فيه بآمالي الى الكذب
حتى اذا لم يدع لي صدقه أملا شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

فكيف السبيل الى إخماد ذكره ، وهذان البيتان من قصيدة أنفذها أبو الطيب الى سيف الدولة في رثاء أخته سنة ٣٥٢ وكان اتصال أبي الطيب بابن العميد سنة ٣٥٤ ولا ريب أن غيظ ابن العميد منه كان قبل أن يقدم عليه ، فلا يكون اذاً بين نظم القصيدة وانتشارها بين المتأدبين والكتاب في كل البلاد حتى استفتح بأبياتها هذا العدد الجم من أدباء الاقطار المختلفة ، الا عام وبعض عام ، على تباعد الأقطار وصعوبة الأسفار .

وجاء في الصبح المنبي عن بعض أئمة الادب أن رجلا من مدينة السلام كان كلما دخل بلداً يسمع فيه ذكر أبي الطيب يرحل عنه حتى وصل أقصى بلاد الترك فسأل عن أبي الطيب فلم يعرفوه ، فتوطنها فلما كان يوم الجمعة ذهب الى صلاتها بالجامع فسمع الخطيب ينشد بعد ما ذكر أسماء الله الحسنى :

أسامياً لم تزده معرفة وانما لذة ذكرناها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فرجع الى دار السلام .

فلا عجب إذاً لرجل ملأ ذكره الاسماع وشغل الدنيا كما يقول ابن رشيق أن يزداد كبرا وتعاظماً ويقول لسيف الدولة :

انا في أنشدت شعراً فانما بشعري أتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتي فانني انا الصائح المحكي والآخر الصدا
وما الدهر إلا من رواة قصائدي اذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

وان يترفع بعد هذا عن مدح غير الملوك وأعيان الزمان ، فلم يجب دعوة الصاحب ابن عباد مع ما يذله هذا من الجهود لاستقدامه اليه . فيقول ابو الطيب فيه (ان غلياً معطاء بالري ، يريد أن أزوره وأمدحه ولا سبيل الى ذلك) علم أنه معطاء يسني الجوائز ، فلم يستمله ذلك اليه لانه استغنى ، فلم يفعل ما كان يفعله أيام بؤسه لغلبة عزة النفس والكبرياء عليه ، وقد أثار اعراضه هذا حفيظة الصاحب ، فاتخذه غرضاً يرشقه بسهام الوقيعة ويتتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته ، وينعي عليه سيئاته وهو أعرف الناس بحسناته وأكثرهم حفظاً لها وتمثلا بها في محاضراته ومكاتباته (١) وأعرض عن الوزير المهلبي وزير الدولة البويهية في بغداد حتى أغرى هذا به حساده من شعراء العراق كابن حجاج وابن سكرة الهاشمي والحاتمي وغيرهم ، فنالوا من عرضه وتبارزوا في هجائه وتماجنوا وتنادروا عليه . ولما قيل له في ذلك لم يزد على قوله : فرغت من اجابتهم بقولي في من هم ارفع طبقة في الشعر منهم .

ارى المتشاعرين غروا بذمي ومن ذا يحمل الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

وخشي ابن العميد وزير ركن الدولة ابن بويه وزعيم الحضرة والمقيم بمصالح المملكة في ارّجان ، وهو على أشد ما يكون من الرغبة في لقائه واستقدامه اليه ، أن يعرض

(١) اليتيمة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عنه كما اعرض عن زميله المهلبي في بغداد، فغري بذمه وانتقاده ، حتى اذا جاءه ابو الطيب مراغما للمهلبي ، فتح له ابن العميد صدره واجزل ثوابه واحسن وفادته ، وسل ما كان في نفسه عليه من موجدة . وانف ابو الطيب من مدح ابن حنزابة وزير كافور والمقرب منه ، وهو من بيت شريف اهل وزارة ورياسة ، ومن الأدب والعلم بموضع جليل . فأفسد هذا عليه كافوراً بما كان يقبح اثره عنده ، وبما كان ينبه على مغامزة في مديحه له حتى خرج ابو الطيب من مصر خائفاً يترقب واتخذ الليل جملا وهرب .

روح ابي الطيب في الإباء قوية ؛ لكن طمعه في الولاية ولذة الامر والنهي والاستعلاء وافراطه في هذا الطمع غطى على هذا الإباء في بعض المواقف ، فاستقاد واستذل ، والا فما معنى قوله في كافور بعد ان ترك سيف الدولة :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت به انسان عين زمانه وخلت سواداً خلفها ومآقيا

* * *

فأصبح فوق العالمين يرونه وان كان يدنيه التكرم نائيا

ويقول فيه :

واخلاق كافور اذا شئت مدحه وان لم تشأ تملي عليّ فأكتب
فتى يملأ الأفعال رأياً وحكمة وبادرة ابان يرضي ويغضب

يقول هذا وكثيراً مثله فيه وهو العبد الزنيم الذي اذنه في يد النخاس دامية وقدره وهو بالفلسين مردود ، ويقبل منه مالم يقبله من سيف الدولة فيخضع للانشاد بحضرته فائماً وهو يعلم ان الفرق بين سيف الدوله وكافور علماً وادبا ونسباً وشرفاً ونوالا ، كالفرق بين الدرة والبعرة لا يقاس بحد ، وما كان كل ذلك الا طمعاً في الولاية، ولعله طمع في خداع هذا الاسود بما يحسبه من ضعف العقل في السودان فازداد في تملقه اذ يقول له ولم يفتأ يذكر الولاية :

اذا لم تنط بي ضيعة او ولاية فجودك يكسوني وشغلك يسلب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يضاحك في ذا العيد كلُّ حبيبه حذائي وابكي من احب واندب
احن الى اهلي واهوى لقاءهم واني من المشتاق عنقاء مغرب
فان لم يكن الا ابو المسك ادهم فانك احلى في فؤادي واعذب

وليس هذا ملق كاذب ان يجعل الاسود الذي مشفره نصفه احلى في فؤاده واعذب من اهله الذين يحن اليهم هذا الحنين ويهوى لقاءهم كما ترى.

أحمد رضا

عضو المجمع العلمي العربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net